العمارة والفن التشكيلي أساس النهضة العمرانية

د. حسان السراج

يعتبر المختصون وأهل الفن.. أن العمارة هي إحدى فروع الفنون التشكيلية الجميلة، بل إن الأفكار المعمارية هي في الأساس أفكار تشكيلية، هذه العلاقة يمكن رصدها، ليس فقط من خلال تشابه آليات العمل بين كل من المعماري والتشكيلي، ولكن أيضاً من خلال الفكرة التي تغوص بعيداً في ماهية عمل التشكيل والمعمار، حيث يؤكد الخبراء أن الرأي الفني الجمالي، لا ينفصل عن الرأي الهندسي العلمي حقيقة، فكل من الفنان التشكيلي والمعماري يشتركان في تشييد أو بناء أو تصميم منجز معماري معين في إطار النظرة الخاصة بكل منهما، وأن هذا الشكل سواء كان عمارة، بيتاً، سوقاً، جداراً، تمثالاً أو نصباً، أو حتى لوحة مرسومة، إنما هي في المحصلة النهائية، تلتقي حول فكرة الفراغ وتجسيد الشكل والكتل في المساحة المنوطة فيها التقاط الكتلة في فضاء التصميم.

فالفنان التشكيلي، هو أحد المعنيين بالعلاقة بين التشكيل والعمارة، حيث يرصد هذه العلاقة منذ التخطيطات التي يرسمها المعماري على الورق، وحين يبدأ تصميم هذه التخطيطات فإنه حتماً يستخدم الخيال والحس، وعندما يبدأ بالتنفيذ يبدأ بتوزيع المساحات والأشكال، من جدران وسطوح ونوافذ، وهذه العملية كما يصفها، إنما هي ذات طريقة الفنان التشكيلي، والفنان النحات، حيث خياله الشاسع، نرى نظرته هنا بأنه الفنان من الطراز الأول.

في واحدة من المحاضرات التي ترصد العلاقة بين التشكيل والعمارة، وقدمها محمد حميدة في الشارقة، في عام ٢٠١٠ ونظمتها جمعية الإمارات للفنون التشكيلية، أكد حميدة قدم هذه العلاقة التي ظهرت علاماتها الأولى في الرسوم المنقوشة داخل الكهوف الأثرية، حيث كشفت هذه الرسوم عن مدى ارتباط الفنان القديم بالأنماط المعمارية المحيطة به والتي آوته واحتضنته في تلك العهود السحيقة، وأكدت محاضرة حميدة، كذلك القيمة التزينية والدينية التي أحاطت بالرسومات والنقوش والمنحوتات المختلفة، التي كشفتها الحضارات القديمة مثل حضارة بلاد ما بين النهرين، والحضارة الصينية والفرعونية، موضحاً كذلك أن العلاقة بين العمارة والتشكيل، توضحت بشكل أكبر وجلي مع الفنون التي ظهرت في العصر الإسلامي وفي عصر النهضة، وما تلتها من مدارس فنية متطورة في العصور الحديثة والأزمنة المعاصرة.

إن التدقيق في خصائص التشكيل الفني لأي تركيب سواء كان جداراً أو واجهة أو منحوتة، لا بد أن يلتقي مع الفهم الجمالي، الذي يبرز الأثر المشترك للفنون، وهذا الأثر، ذو بعد حضاري اكتسب الكثير من القيم التي تؤكد تحديد هوية الفن بوصفه مفتوحاً على مسارات جمالية وشكلية ومفاهيمية، تدرس من ناحيتها الوظيفية والجمالية في ذات الوقت.

فتكوين مبنى سكني في أي حضارة من الحضارات، إنما يعبر في نهاية المطاف عن حكاية هذا المبنى، التي تبدأ من تكوين الشكل والفراغ، وترسم ملامح كتله وهيكله النهائي مروراً بكثير من العناصر التزيينية أو الزخرفية، حتى الانتهاء من تشكيل واجهته المعمارية.

فالبيئة واختيار المكان المناسب هي إحدى مكونات الشكل في البناء، فدراسة البيئة في التشكيل هي واحدة من أساسيات الفن، وهي من المسائل التي تشغل ذهنية المهندس المعماري كما هو الحال في الفنان التشكيلي، بالإضافة إلى دراسة الأثر النفسي لهذه البيئة في السكان.

ويتجلى الأثر المعماري في الشكل الفني من خلال النظر في كثير من النماذج المعمارية للمباني القديمة في تدمر وبابل وغيرهما من الآثار المعمارية المتفرقة في بيئتنا العربية القديمة.

فثمة علاقة تفاعلية، يعرفها المهندسون المعماريون، تماماً كما هو حال التشكيليين، هذه العلاقة يمكن رصدها من خلال تمازج وتكامل هذين المسارين (التشكيل والعمارة) من حيث تجانسهما وتناغمهما، ومن خلال دراسة أصول الفن وخطواته، من حيث التصميم، ودقة التنفيذ، والإخراج، فأي مشروع فني أو معماري، يجب أن تكون متلازمة العلاقة الفنية والجمالية بينهما تعتمد على انسجام وتوازن عناصره من ألوان وكتل ومساحات تلتقي جميعاً ضمن ما يعرف بالوحدة المتكاملة، وهي وحدة معيارية ثابتة في الفن وفي المعمار على حد سواء، فتراعى فيها بالإضافة للقيم الفنية والجمالية، البيئة الاقتصادية والاجتماعية، من جهود وكلفة مادية، تؤخذ بعين الاعتبار لتغطي حاجيات العمل الفني من كافة جوانبه العامة والخاصة، ليظهر بالمظهر المنشود..

فنرى الكثير من الفنانين الحداثيين، الذين يبحثون في الطبيعة، ويصبغون في فنهم طابع الرؤية الفنية التشكيلية بطابع معماري، يصف نظرته الفنية بقالب هندسي معماري، تتجلى فيها الرؤيتين التشكيلية والمعمارية، بقالب فني حديث، وبالذات في الهندسة المخفية أو اللامرئية في الطبيعة، يطلق عليها (الهندسة الكسورية)، كما هو في أعمال الفنانة الأمريكية من أصل باكستاني شفق أحمد، فالكسيرية كائن هندسي يتصف بالخشونة وعدم الانتظام على كل المقاييس، ولهذا يبدو في جوهره وكأنه مكسور، وببساطة يمكن تعريف الكسيريات على أنها

صور مقسمة إلى أجزاء، كل منها يبدو مماثلاً للأصل، وتحتوي الكسيريات في طياتها معنى اللانهاية، ويبدي بعضها بنية تتصف بالتشابه الذاتي على كل المقاييس، ومختلف مستويات التكبير، في معظم الحالات، ويمكن توليد الكسيريات من خلال تكرار معين، يتم ذلك عبر إجراء تعاودي أو تكراري، قبل أن يقوم ماندلبروت بصياغة هذا المصطلح، كان الاسم الشائع لهذه البنى (كندفة الثلج لكوخ مثلاً) هو المنحني الغريب monster curve.

لقد تمت دراسة العديد من أنواع الكسيريات على أنها كائنات رياضية، وتشكل الهندسة الكسيرية فرعاً من الرياضيات، يختص بدراسة سلوك وخصائص الكسيريات، كما تصف الكثير من الحالات التي يستعصي وصفها على الهندسة الكلاسيكية، وغالباً ما تطبق في حقول العلوم والتكنولوجيا والفنون المولدة حاسوبياً، ومن المشاكل التي تخص تعريف الكسيريات، لا يوجد تعريف دقيق لعبارة "شديد اللانظامية"، ولا يوجد تعريف دقيق للـ "بعد"، وتوجد العديد من الطرق التي يمكن من خلالها تعريف كائنات ذات تشابه ذاتي، وليست كل الكسيريات معرفة بشكل تعاودي، فالكُسيريات أو الفركتلات هي أشكال هندسية تختلف عن الأشكال الهندسية الأخرى بسبب الطريقة التي تتدرج بها زيادة أو نقصانا، ومضاعفة أطوال حافة مضلع يضاعف لها المساحة إلى أربعة، وهو اثنان مرفوعا للقوة اثنين.

إن موضوعات العمارة والمنشآت المدنية تبدو واسعة الطيف في عالمنا المعاصر، يتداخل في ظلها أكثر من علم، كما تؤثر فيها عوامل ومعطيات فنية وفكرية متعددة، وإذا دققنا بهذا الخصوص ونظرنا الى العمارة من زاوية نظرية، نجد أنها تعتبر فناً من الفنون المكانية (الجميلة)، بل تصنف عادة بين الفنون، على الرغم من انتمائها إلى نسق العلوم التطبيقية عملياً. ففي كتب علم الجمال تصنف العمارة كأبرز الفنون، حيث أن مؤلفات القرن التاسع عشر تسهب في الدراسات المعمارية الجمالية، وتشطح بعضها لدرجة اعتبار العمارة فناً مجرداً.

إلا ان الدراسات النظرية والتنظيرية التي تعالج العمارة قلت نسبياً في القرن العشرين، أمام الكم الهائل من الإنتاج المعماري والتوسع العمراني، وبالتالي عملية تشييد الصروح المعمارية والإنشائية بالطرائق الفنية التقليدية، أو تلك المبينة على أسس علمية فيزيائية معاصرة، حيث يتغلب في الطريقة الأخيرة الجانب العلمي ـ التقني على الفني الجمالي.

وبذلك تحولت العمارة تدريجياً في الألفية الثالثة الى الإنتاج السلعي واكتسبت قوانينها تدريجيا، إذ تغيرت الدلالات الجمالية والصيغ الرمزية للمفردات المعمارية، مع تبدل التصاميم واستنباط مواد جديدة للبناء وتنويع وظيفة المنشأة.

وبقدر ما تبتعد العمارة المعاصرة عن جذورها الفنية، تستمر الحاجة لتناولها ثقافياً ومعرفياً. فمهما حدث، تظل العمارة ظاهرة فنية جمالية، وأحد تجسيدات وتغييرات البيئة والهوية والخصوصية المحلية، والأهم من ذلك، أنها باتت تشكل اليوم مجمل البيئة الاصطناعية للمدن والأرياف، وتهيكل حياة الإنسان الاجتماعية وتحدد إحداثياته المكانية، وربما جغرافيته الاجتماعية إن جاز التعبير، ونتيجة للتصادمات الطبيعية لاتجاهات العمارة المعاصرة، حيث تنصب الاهتمامات على العمارة من زوايا متعددة (فلسفية، معرفية، وظيفية، شكلانية، إعلامية.. خاصة)، أو عندما تبرز تعقيدات المسألة العمرانية الهندسية المنبثقة من إشكالية تغيير النسيج المعماري الأثري للمدن القديمة، وغالباً ما ينجم عن هذه الاجراءات نوع من التصادم بين طرازين مختلفين من البناء، الحديث الغربي والتراثي الشرقي، فتقع تلك التصادمات بين الرؤيتين بسبب الجهل العلمي والفني بين الطرفين، فيحدث كل هذا على خلفية افتقار الرؤية الصحيحة، والمفاهيم والأدبيات العربية من دراية فكرية ومنهجية، وبعد الاطلاع والتصفح لمجلات وصحف خاصة، للدراسات الجادة والتي تعالج العمارة من النواحي (البيئية، الاجتماعية، التنموية، التاريخية)، وقلما نجد دراسة علمية منهجية تعالجها من الداخل خارج حقل المعارف الجامعية، ويبدو أن تدني مستوى الاهتمام بالعمارة ثقافيا ومعرفيا، وضيق المساحات المخصصة لها إعلاميا، ساهم في تراجع الموضوع ذاته، إلى زوايا هامشية على جدول أعمال (الهموم الثقافية والتاريخية)، وبالتالي مهد هذا التراجع لوضعية الضعف العام في فهم الأدبيات الحضرية العربية شكلاً ومضموناً، وصولاً إلى ما يمكن اعتباره تدنياً في الوعي المعماري، الذي يمكن أن نعرج على سبب ضعفه وتراجعه، والجدير بالذكر يجب أن نسلط الضوء على تلك النقاط، لتلافيها والارتقاء إلى ذروة البناء والتطلع الحضاري المعماري، فالأسباب هي:

١. ابتعاد كليات الهندسة المدنية والمعمارية عن الواقع الاجتماعي وانفصالها عن المناخ الثقافي، وتقوقع الطلاب والأساتذة إلى حد ما داخل الأطر والمناهج الاكاديمية وبين جدران المدرجات وطاولات الرسم، وفي حالات نادرة نجد محاضرة عامة في الوسط الجامعي تربط العمارة

بالظواهر الاجتماعية والمدارس الفلسفية ـ الجمالية، وهذه النشاطات الجامعية المرافقة والموازية للمناهج على الرغم من أهميتها تظل سنوية أو موسمية، وتنسحب الحال هذه على أغلب النقابات والأندية الهندسية، إن حجم ونوعية المقررات الفكرية ـ الفلسفية التي تعالج وتناقش موضوعة ترابط العمارة مع المجتمع، وحركية القيم الجمالية للمجتمعات البشرية، تظل أضعف من القدرة على التفاعل مع الموضوع بعمق، ولم تأخذ كامل حقها بعد، فنرى الاهتمام بتاريخ الغرب أكثر من اهتمامنا بتاريخنا العربي الأصيل، الحافل والمليء بحضارات وتاريخ عريق لا ينضب عطاءه من النواحي العمرانية الضخمة، منذ نشأة العمارة من عهد الرسالة المحمدية إلى وقتنا هذا، فنرى اصطفاف المعلومات في وقتنا الحالي ومناهجنا الأكاديمية، مكتظة ومزدحمة بمعلومات، لا تتفق مع الفكر العلمي والثقافي التي تواكب الحضارة الحديثة..

فقد نصادف مقرراً في بضع مئات من الصفحات (علم الاجتماع العمراني) الذي يتم تدريسه عبر الالتزام بالتقاليد الأكاديمية والمنهجية المخطط لها، في حين نرى مقررا أو مادة (لتاريخ العمارة) مختصرا جداً في المنهج والأسلوب والسرد، وهو يدرس في أغلب كليات الهندسة المعمارية.. علما أن يحمل في طياته الكثير من المعلومات والثقافات والحضارات الهامة والعظيمة، لضخامة تاريخ العمارة العالمية، ويعود الافتقار كما أشرنا سابقا ولاحقا إلى ضعف المكتبة العربية وافتقارها لكتب تاريخ العمران والعمارة في مختلف المراحل الحضارية التي مرت بها المنطقة بما فيها العمارة الاسلامية، وكما أن ابتعاد المهندس المعماري الممارس للحياة الثقافية والفكرية، وانشغاله بالحياة اليومية والشخصية، عن المهنة الحقيقية المترتبة عليه من البحث والاطلاع وتطوير الذات، ليرتقي بثقافته وعلمه، ويغذي معرفته وفكره بمبادئ العلم والمعرفة، والتي قد تساهم في عودته عن القطيعة المعرفية.

٢. عدم توفر الكتب والمراجع التي تتناول الجوانب الفنية والتاريخية والفلسفية للعمارة (بطبعاتها البسيطة) التي تكون أقرب إلى الثقافة العامة منها إلى المناهج الجامعية الأكاديمية، مما أدى إلى تدني الوعي المعماري لدى العامة، هذا الوعي المؤسس على أفكار علمية وفلسفية، كما نتج عن مجمل ما سبق تراجع الثقافة والذوق البصري الفني لدى سكان المدن والأرياف، عدا ما هو متوارث قيميا، لدرجة أن بات طرح ومناقشة موضوع متعلق بالحس المعماري، أو معضلات التمدن والعمران، ضرباً من الإغراق في التخصص، بغض النظر عن الكثير من القراء والمهتمين، بعكس الجوانب الأخرى من الحياة الثقافية، وفي السياق نفسه نلاحظ أيضاً أن حركة الترجمة من لغات العالم لهذا النوع من الكتب قليلة بل نادرة، لا ترتقي بالمعلومات المتوفرة في كتب الغرب

والغزيرة، والتي بحاجة إلى ترجمتها وتدوينها في مناهج الجامعات العلمية، وتدريس وترجمة، لكافة جوانب الفن والعمارة الغربية وتبسيطها، لتغذي الفكر البسيط والمتواضع في جامعاتنا المفتقرة لتلك الجوانب الفكرية والعلمية، ورفع شأنها الحضاري.

وإزاء كل هذا التصادم والتشابك، فنحن أمام مسألة ثقافية علمية ذات شقين، الأول مرتبط برفع سوية الوعي بالموضوع كما سبق ذكره، والثاني مرتبط بنقد الإنتاج المعماري ـ الإنشائي المدني المعاصر وتقويمه من أرضية صلبة متينة، مبنية على أسس صحيحة وذات مصداقية عالية، فلهذا لا بد من التفكير في بناء واستحداث النقد والنقد الذاتي، لمعالجة كافة الظروف والمناخات التي تحول من التطوير والإنتاج، وإنشاء روابط قوية للنقد المعماري والفني بجوانبه المتعددة، تستوعب كافة المهتمين من فنانين ومؤرخين وإعلاميين وأنصار للبيئة لتنشيط (حاسة البصر)، وتوسيع الاهتمام المديني، ولكي يخرج الموضوع برمته من إطاره الضيق، إلى الأفق الواسع الرحب، وكما جرت العادة على سبيل الذكر أن يتم تقويم الأعمال والمشاريع المقدمة والمصممة للتنفيذ، بالعرض على لجان خاصة علمية وعملية من حيث الرؤية الفنية والهندسية المعمارية ومهتمة بالأمر كثيرا وبشكل حازم ورائع، وتبدي رأيها بقبول تلك المشاريع المعمارية والتجميلية ضمن معايير صحيحة، تتناسب مع الخطة المعدة لها، وتسهيل وإزالة كافة العراقيل التي تحول تحقيقها وتنفيذها..(مواقع الجسور– الساحات – الحدائق.. الخ أو طريقة مثلى غيرها، تعمل الجهات المختصة، من خلال (مسابقة) تقدمها بوسائلها الخاصة، قبل تنفيذها على أرض الواقع، وأرى أيضا من جهة أخرى، توسيع نطاق البحث والعمل والدراسة، عن طريق عرض الدراسة والمشاريع عن طريق الجامعات والهيئات الاستشارية، وأيضا طريقة عرض أخرى، تتم عن طريق زج الموضوع والدراسات في الشارع الثقافي، أي جعل الموضوعات المعمارية في متناول (الصحافة)، للوصول الى حالة ينبغي للمهندس المصمم أن يدرك من خلالها أن مشروعه سيتم تناوله نقديا على أوسع نطاق، حتى وإن تم اعتماده من قبل اللجان المختصة، وفي اعتقادي أن الإبداعات المعمارية والمدينية، لا تتقدم ما لم تتفاعل مع أوسع قنوات النقد والتقويم، وما لم يرتبط النتاج المعماري مع الذوق والوعي العام، وفي الوقت نفسه لا تنجح هذه التوجهات إن لم تترافق مع نشر واسع للمعارف المعمارية والجمالية، التراثية منها والحديثة والمستقبلية.

ولذا نجد أن الافتقار إلى المجلات المعمارية الهندسية الرائدة التي تربط العمارة بالواقع، بكل تنوعه وشبكة مؤثراته الاقتصادية والفنية[4]، فالحاجة تزداد للاهتمام بالعالم الحسي والفني، والتي تشكل العمارة أساسها وجغرافيتها، فحيث تتقاطع على تضاريسها العلوم والفنون والعمارة والاجتماع والفلسفة، فحان الوقت الآن.. لأن يكون

للفن والعمارة، نهجا وطريقا يسلك وينهج طريق الدراسات والاستشارات الواسعة واللامحدودة، وبأفق واسع وعريض.. لا أفق ضيق وصغير.. ويجب أن يخرج نهجنا إلى عالم المعرفة والتطوير والحداثة، والابتعاد عن الفكر المنغلق والمعتمد على نطاق العلوم الخاصة والمرتبطة بطريقة آكاديمة متواضعة، بعيدة كل البعد عن ركب الثقافات الأخرى، فنحن لسنا بصدد موضوعة نخبوية، وإنما في مواجهة مستقبلنا العمراني والبيئي بكل ما فيه من إمكانية للتطور والتجديد وآفاق واسعة للابتكار وإعادة تشكيل المكان والفراغ بكتل جميلة مليئة بحضارات وثقافات عريقة ممزوجة بالحداثة والتطوير، ولا يمكن الاستغناء أبدا عن تاريخنا وأمجادنا العريقة وحضارتنا العمرانية قط.. بل نستلهم دائما الجديد.